سماحة السيد محمد علي أبطحي -
الوسطية:
طريق بين العداء للدين واستغلاله

قبل أي شيء أود أن أعرب عن سعادتي للمشاركة في هذا اللقاء الذي يحمل اسم «الوسطية» بدعوة من الأستاذ نجيب ميقاتي الذي يعتبر رمزاً للوسطية في هذا البلد.

أثبتت التجارب انه اذا كانت الوسطية ضرورة في كل مسائل الانسانية الحياتية، إلا أنها في مجالي الدين والسياسة، لا تعتبر الوسطية أمراً يجب توفره، بل ضرورة وحاجة إنسانية. وعندما يدور الحديث عن الوسطية، فمن الطبيعي التوقف عند بعدي هذه الوسطية.

من جهة الإفراط في مجال الدين، والعداء للدين الذي ينتشر على الصعيد العالمي، طبعاً ما أقصده من العداء للدين ليس بالتحديد العلمانية، وأعتقد أن الأزمة التي يشهدها العالم اليوم هو الإغراق في الدين لدى قادة مسؤولين كباراً في العالم، بل إن ما اقصده في هذا البحث، هو المواجهة الممزوجة بالإهانة التي تحدث في تعامل الغرب مع الإسلام، والإسلاموفوبيا نتيجة لها. هذه المواجهة مع الدين لها جذور تاريخية، إما لمواجهة العنف الديني أو بسبب الالتزام المتطرف بالدين الذي يعتبر المؤمنين بالأديان الأخرى كفرة ويريد المواجهة والصراع معهم. والمادية وإهمال القيم المعنوية كانتا أيضاً سبباً في أزمات كثيرة وصورة أخرى للعداء مع الدين.

من ناحية أخرى فإن استغلال الدين يقع في الجهة المقابلة لموجة العداء للدين هذه. والحقيقة هي أن الدين في عالم اليوم هو جوهرة ثمينة، لأنه إن لم يكن ثميناً ولم يحظ بميول واسعة باتجاهه، لما بذلت كل هذه الجهود الكبيرة من أجل استغلاله أو توظيفه، من هنا فإن الدين كغيره من مصادر القوة الأخرى في العالم، وجد متصدين له، وهؤلاء المتصدين يسعون للاستفادة من هذا البعد خدمة لأهدافهم وليس خدمة لأهداف الذين جاؤوا بهذه الأديان. هذا الواقع الأليم يحدث للأسف في كل الأديان، ويمتلك في الوسط الإسلامي قوة وقدرة كبرى. قطعاً إن أعمال العنف التي تحدث باسم الإسلام، لا يمكن أن تمت بصلة لهذا الدين الإلهي. الله الذي خلق كل البشر على صورة واحدة وشجعهم على السلام والمحبة والصداقة وعرَّف الإسلام بأنه دينٌ وسط. إلاَّ أن المستغلين حتماً شاهدوا وأدركوا مجالاته فعمدوا إلى نشر العنف. وللأسف فإن أرضية قبول شعارات العنف الديني في الدول الإسلامية تشكلت عن طريق سياسات القوى الكبرى وخصوصاً إسرائيل وأميركا في العالم.

في حرب أفغانستان، عندما رغب الأميركيون وحلفاؤهم في المنطقة الاستفادة من عنصر الدين لتوجيه ضربة الى عدوهم السياسي الكبير في تلك الأيام، أي الاتحاد السوفياتي، عندها ولأول مرة انتشر مصطلح «مجاهد» في وسائل الإعلام الأميركي وحلفائه الإقليميين وتحول إلى قيمة دينية. وكانت المجتمعات الاسلامية عامة تنظر إلى كلمة جهاد ومجاهد على أنها ذات جذور

تاريخية وتعود إلى مرحلة الرسول. لكن وسائل الإعلام الغربية وحلفاءها ساهموا، وقبل غيرهم، في عصرنة مفهوم الجهاد. طبعاً القاعدة هي أن القوى الكبرى بإمكانها أن تكون البادئة في الاستفادة من الدين على هذا النحو، لكن يجب أن نعلم أن نهاية هذا الأسلوب ليست في يد من بدأه. إن الفاجعة المرَّة والمعادية للإنسانية التي تمثلت في انهيار برجي التجارة الأميركيين على يد المجاهدين الذين تربوا برعاية أميركية، هي مثال على هذه المشاكل والأزمات الناجمة عن استغلال الدين.

من ناحية أخرى، نحن مثقفي العالم الإسلامي عملنا بجهد لإرساء الكثير من العقائد المقبولة من الغرب مثل الديموقراطية وحقوق الإنسان والحرية والحوار والمساواة. ولو فتشنا عن جذورها الدينية وتطابقاتها مع معتقدات شعوب المنطقة وبلدنا، وبعض الأشخاص تحملوا الكثير من العناء والمشاكل من أجل إنجاز هذا الهدف. لكن للأسف بقينا عاجزين عن إيجاد جواب لسؤال يطرحه الجيل الحالي، وهو إذا كان الغرب يعتقد بهذه الشعارات، إذاً لماذا تسحب وتلغى هذه القيم عندما تصل إلى الحدود الإسرائيلية وتتغاضى عنها القوى الكبرى، وتوزّع البشر إلى إنسان من الدرجة الأولى وآخر من الدرجة الثانية، تساوي بين دم فرد إسرائيلي ومئات الفلسطينيين وتنتهي كل الوسائل السلمية إلى طريق مسدود، وفي ظل هذه الأوضاع، من الطبيعي أن يفتح المجال أمام المتطرفين ودعاة العنف الديني.

في هذه الثنائية المتطرفة العداء للدين والاستغلال العنيف للدين، تبقى الوسطية هي السبيل الوحيد الذي يمكنه أن يضع المستقبل المر بعيداً عن المجتمع البشري.

لا شك أن تنافساً وسباقاً خطيراً بدأ بين الغرب والإسلام، ما سيجعل المستقبل محفوفاً بالمخاطر أمام الإسلام والغرب على حد سواء. أحد أوجهه إهانة المقدسات الدينية وعدم الاعتناء بأحاسيس أكثر من مليار مسلم، والوجه الآخر التظاهرات والاشتباكات والتهجم على السفارات و....

إذا أخذنا بالاعتبار السيطرة الغربية على وسائل الإعلام العامة، فإن هذا السباق لن يحمل معه مستقبلاً سلمياً. فإن الحقد الذي تخلقه هذه الإهانات داخل المجتمع الإسلامي وردود الأفعال الطبيعية التي تنتج من ناحية أخرى، تحمل بعداً خطيراً جداً. خطر يساهم من ناحية في استمرار الذعر من الإسلام ومن ناحية أخرى ذعر من الغرب، والدُّعَران يسوقان العالم باتجاه أزمة خطرة. حروب دينية جديدة، كما حدث تاريخياً ستنشأ من كل هذا الحقد. لقد شكلت إهانة المقدسات دائماً الشرارة لاشتعال حروب كبيرة تاريخياً. وفي ظل هذه الأوضاع ليس أمام الإنسانية سبيل سوى العودة إلى الاعتدال والوسطية. ويجب السيطرة على العداء للدين. وعلى الغرب أن يكون أكثر منا قلقاً من العداء للدين. ويجب علينا مواجهة استغلال الدين أيضاً. وفي الوقت نفسه أن نضع مصلحة الدين والناس في الأولوية وليس مصلحة الذين يقتاتون على الدين أو مواجهته. وعلى الدين أن يعمد إلى الوسطية من أجل استمراريته، والطريق الوحيد لحل هذه الاشكالية هو الحوار بين

المفكرين وعلماء الدين وليس الأشخاص الذين يطلقون الإهانات أو يحرضون على العداء ولا يمتون للحوار بصلة. المدعوون للحوار والتحاور هم فقط العلماء.

في ظل هذه الظروف فإن واجب المفكرين والعلماء الغربيين والمسلمين ومن أجل إنقاذ ونجاة العالم هو سحب بساط الأنشطة الفكرية من تحت أرجل المعادين للدين والمتطرفين ودعاة العنف الديني لكي تستطيع البشرية الاستفادة من العناصر الإيجابية في الدين من أجل الحفاظ على الأخلاق والتسامح أو «الهدوء الديني»، لكي يستطيع المتدينون الاستفادة من الإنجازات الأخلاقية والسياسية والتكنولوجية للغرب والتفكير بمستقبل زاهر للبشرية في إطار تعاون مشترك.

في النهاية وللأسباب التي ذكرتها، أكرر شكري للقائمين على هذا المؤتمر الذي اختاروا له اسم «الوسطية: مشروع الإنسانية الحضاري» الذي يشكل ضرورة إنسانية معاصرة.

ولبنان كان على مدى التاريخ البلد الوحيد الذي جسد رمز التسامح والعيش المشترك بين كل الأديان، وآمل أن يعود لبنان مستقبلاً إلى سابق عهده من الحيوية والديمقراطية بعد حل كل مشاكله التي يعانيها.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

• • • • •
• • •
•